الرسائل الدّيوانيّة والإخوانيّة في المشرق والأندلس والمغرب

تعريف الرّسالة / الكتابة:

(الرّسالة باب من أبواب النّثر الفنّيّ الجميل الذي يُعدّ ندًّا للشّعر وكُفؤا له، كما يؤكّد ذلك ابن قتيبة في معرض حديثه عن الأوقات التي ينهال فيها النّثر الفنّيّ الجميل على القرائح، ويَرِدُ فيها الشّعر على الخواطر حيث // يقول: "وكذلك الكلام المنثور في الرّسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذّر على الكاتب الأديب، والبليغ الخطيب")[1].

(كان الأدباء الأندلسيّون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فنّيّ جميل في غرض من الأغراض، ويوجّهه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجوابَ والخطابَ، ومن ذلك ما ورد في الرّسالة الجوابيّة التي بعث بها أبو جعفر أحمد بن عبّاس لأبي المغيرة بن حزم، إذ كتب إليه يقول: "ورأيتُ ما نحلْتَهُ الرّسالةَ المعربةَ عن فنون البراعة، وأعرتها من بدائعِ الصّناعة، التي لو رام نُبْذًا منها بديعُ الزّمان، أو عمرو بن عثمان، لتردّدا يخبطان عشواءَ، وأصبحا في خَجَلَةٍ يطلبان النّجاءَ...")[2].

(مدلول لفظ رسالة إنّما يعني ما يدبّجه الكاتب ويبعث به إلى غيره)[3].

(كان الأدباء الأندلسيّون يطلقون لفظ رسالة أحيانا على القصائد والمقطوعات الشّرعيّة التي ينظمها الشّاعر على شكل خطاب موجّه إلى صديق أو غيره في أيّ موضوع، ويبدو ذلك واضحا في عدد من الأخبار والنّصوص الأدبيّة التي انتهت إلينا، ومن ذلك ما جاء في الذّخيرة من أنّ أبا مروان الحجاريّ كتب إلى المأمون ابن ذي النّون "رسالة السّجن والمسجون والحزن والمحزون" وأودعها قصائد مطوّلات ومقطوعات أبيات)[4].

(تضمّنت بعض النّصوص الشّعريّة في ثناياها إشارات صريحة إلى إطلاق لفظ رسالة أحيانا على القصائد التي يبعث بها الشّعراء إلى غيرهم، ومن ذلك ما جاء في إحدى قصائد ابن زيدون التي وجّهها من السّجن إلى أبي الحزم بن جهور، وفيها يشير إلى كثرة رسائله الشّعريّة إليه قائلا:

أَفِي العَدْلِ أَنْ وَافَتْكَ تَتْرَى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتَّرِكْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيْ عَدْلِ)[5]

(لم يتناول أحد من النّقّاد العرب القدامى مفهوم أدب الرّسائل بالتّفصيل، وجلّ ما نجده عن أدب الرّسائل آراء متناثرة في عدد من مصادر النّقد الأدبيّ القديمة. إنّ تحديد مفهوم أدب الرّسائل يستدعي من الباحث أن يقف عن مفهوم لفظ رسالة في الأدب، إلى جانب دراسة مرادفاته التي شاع استعمالها، وتوضيح علاقتها بمفهوم لفظ رسالة)[6].

---

[1] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 84، 85، ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ج 1، ص: 25.

[2] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 78.

[3] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 79.

[4] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 79.

[5] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 79.

[6] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجريّ، دار البشير للنّشر والتّوزيع، ط 1، الأردن، 1989، ص: 77.

(لقد اشتقّ لفظ رسالة من المادّة اللّغويّة "رَسَلَ" التي تدلّ على معانٍ حسّيّة كثيرة أفاضت أمّهات المعاجم العربيّة القديمة الحديث عنها وهي: "القطيع من كلّ شيء"، أو "القطيع من الإبل والغنم"، أو "الإبل... قطيع بعد قطيع". وقد تطوّر مفهوم لفظ رسالة من الاستعمال الحسّيّ إلى الاستعمال المعنويّ، فقد ذكر ابن منظور أنّ الإرسال يعني التّوجيه، والاسم الرِّسالة والرّسالة، ثمّ تطوّر هذا المفهوم للفظ رسالة وانطلق من المجال اللّغويّ ليدلّ على كلّ كلام يراسل به من بعيد)[1].

(من الألفاظ المرادفة لمصطلح رسالة في الأدب الأندلسيّ لفظ كتاب، فقد دلّ هذا اللّفظ منذ البداية الأولى لأدب الرّسائل في الأندلس على ما كان يدلّ عليه لفظ رسالة، وهو الإشارة إلى النّصّ المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أيّ موضوع)[2].

(شاع استعمال لفظ كتاب وكثر اتّخاذ الكتّاب المترسّلين له في مكاتباتهم المختلفة الرّسميّة الخاصّة، حتّى صار مرادفا للفظ رسالة وموازيا له في المعنى والدّلالة، وممّا يؤكّد ذلك ما ورد في إحدى رسائل الوزير أبي محمّد بن عبد البرّ التي يقول فيها: "وما زلتُ أفضُّ كتبَك عن بدائعَ دونها السّحرُ، ولآلئ يُزْهَى بها النَّحْرُ، وغرائب يعذب بها لو مازَجَتْهُ البحرُ، فأعترفُ بالتّقصير... حين قابلتني بما لو قوبل به النّجومُ لانحطّت إليه من سمائها، أو الغيوم لترقرقتْ عليه من أرجائها، وذلك ما أبديتَه، ممّا أدّيتَه، بل أهديتَه، من تلك الرّسالة المستبينة الإعجاز..."، فقد أطلق أبو محمّد بن عبد البرّ لفظ كتاب على ما كتبه إليه صديقُه نثرا، ثمّ أردف ذلك بلفظ رسالة... وهذا يؤكّد أنّ هذين اللّفظيْن قد استُعملا بمعنى واحد، وأنّهما من باب الألفاظ المترادفة)[3].

(ونظير هذا أيضا ما ورد في رسالة طوق الحمامة لابن حزم التي تُعدُّ من الرّسائل الطّوال التي تجري مجرى الكتب المصنّفة، يقول ابن حزم في صدر تلك الرّسالة: "... وكلّفتني – أعزّك الله – أن أصنّف لك رسالة في صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة... فبدرتُ إلى مرغوبك، وولا الإيجاب لك لما تكلّفته، وسأورد في رسالتي أشعارا قلتها فيما شاهدتُهُ، فلا تنكر // أنت ومن رآها عليّ أنّي سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه... والتزمتُ في كتابي هذا الوقوف عند حدّك...")[4].

(من ذلك أيضا ما ذكره أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميريّ في معرض حديثه عن إحدى رسائله التي كتبها على لسان الأزهار، يقول: "فأوّلُ من رأى ذلك الكتابَ وعاين الخطابَ نواويرُ فصل الرّبيع التي هي خيرةُ الورد في الوطن وصحابتُهُ في الزّمن، فلمّا قرأَتْهُ أكبرَتْ ما فيه وبَنَتْ على هدم مبانيه وبعض معانيه... فكتبتْ إلى الأقحوان والخيريّ – كتابا – منه: وأمّا من عقد تلك البيعة وكتب تلك الصّحيفة فلم يُرَ له قَطُّ صورةٌ". ويتّضح للباحث من سياق الكلام في الرّسالتين السّابقتين أنّ الكاتبين قد أطلقا لفظ صحيفة على الكتاب، واستعملاهما بمعنى واحد)[5].

---

[1] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 77.

[2] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 80.

[3] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 81.

[4] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 81، 82.

[5] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 82.

(لفظ رسالة في الأدب الأندلسيّ إنّما كان يُقصد به الرّسالة النّثريّة الفنّيّة أي القطعة النّثريّة التي يدبّجها الكاتب في نسق فنّيّ جميل في غرض من الأغراض، ويبعث بها إلى شخص آخر، وإلى ذلك يشير ابن بسّام بقوله: "فإنّ ثمرة هذا الأدب، العالي الرّتب، رسالةٌ تُنثر وتُرسل، وأبياتٌ تُنظم وتُفصل، تنثال تلك انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتّصل هذه اتّصال القلائد على نحور الخرائد")[1].

(الرّسالة هي لون من ألوان النّثر الفنّيّ الجميل، وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انهيالا، ولا يكاد يختلف مفهوم الرّسالة الفنّيّة عند الأندلسيّين عن مفهومها عند المشارقة، فالأدب في عرفهم جميعا ينقسم إلى أصلين أساسيّين: منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرّسائل، وهما فنّ واحد أو فنّان متقاربان يقابلان الشّعر.

وقد أشار ابن حزم إلى ذلك في معرض حديثه عن الطّريقة الفنّيّة التي ابتكرها ابن درّاج في الكتابة عند الأندلسيّين بقوله: "وقد كان أحدث ابن درّاج عندنا نوعا من البلاغة ما بين الخطب والرّسائل")[2].

(ومن الألفاظ المرادفة أيضا لمفهوم لفظ كتاب لفظ صحيفة، إذ كان يُراد به أحيانا ما يُراد به لفظ كتاب كما يظهر واضحا فيما ورد في بعض رسائل الأندلسيّين ومُكاتباتهم المختلفة، ومن ذلك ما جاء في رسالة ابن برد الأكبر التي كتبها عن المستعين إلى جماعة العبيد، وفيها يقول: "زعم كاتب صحيفتكم أنّه ما دامت خلافةُ سلفنا إلاّ بطبقتكم، ولا عزّت إلاّ بدعوتكم...")[3].

في الأندلس (كان لفظ كتابة إذا أُطلق لا يُراد به غير كتابة الرّسائل)[4].

بين الخطبة والرّسالة:

(ربط أبو هلال العسكريّ في تعريفه للرّسالة بين الرّسالة والخطبة، فهو يرى أنّ الرّسالة تقابل الخطبة، إذ لا فرق بينهما إلاّ بالتّسمية فقط، وذلك على أساس تشاكل الألفاظ والفواصل، وما إلى ذلك من سهولة وعذوبة وتحرّر من الأوزان والقوافي، إلاّ أنّ الخطبة تُلقى مشافهة على الجمع من النّاس، والرّسالة تُحبّر ثمّ يُبعث بها، ومن السّهل أن تُجعل الرّسالة خطبة والخطبة رسالة)[5].

(يختصّ الكتاب والصّحيفة بعنصر أساسيّ وهو الكتابة، فمن فضول القول أن نقرّر أنّ الكتاب لابدّ أن يكون مكتوبا، وكذلك الصّحيفة... ومن ثَمَّ لا يُطلق أيٌّ منهما على ما يبلغ أو ينقل لطرف آخر شفاهة)[6].

(أحيان تستعمل كلمة "الوصيّة" بديلا للرّسالة والكتاب، وهي كذلك قد تكون مكتوبة وقد تكون شفويّة، ولكن مضمونها الفكريّ يغلب عليه طابع التّوجيه والإرشاد في مجال خاصّ أو عامّ)[7].

---

[1] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 83.

[2] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 83.

[3] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 82.

[4] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 78.

[5] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 84، يُنظر: العسكريّ: كتاب الصّناعتين، ص: 136.

[6] جابر قميحة: أدب الرّسائل في صدر الإسلام الجزء الأوّل عهد النّبوّة، ص: 10.

[7] جابر قميحة: أدب الرّسائل في صدر الإسلام الجزء الأوّل عهد النّبوّة، دار الفكر العربيّ، ط 1، القاهرة، 1986، ص: 11.

(كانت الرّسالة والكتاب هما أشهر هذه الإطلاقات وأكثرها استعمالا على مدار التّاريخ... أمّا أقلّها بل أندرها استعمالا فكلمة "الصّحيفة" التي تستعمل فيما هو مكتوب ولو لم يكن ثمّة أطراف تتبادل الصّحيفة ما بين مرسل ومرسل إليه... ويلاحظ أنّها لم تستعمل في القرآن الكريم إلاّ جمعا، وبمعنى صحف الوحي وكتب الأنبياء... "وعلى أيّ حال يمكن أن نكثّف ما تلتقي فيه كلّ هذه الإطلاقات بأنّه المكتوب الذي يتعلّق في مضمونه بأكثر من طرف")[1].

(نشير في عجالة إلى لون نثريّ يأتي في المرتبة الثّانية قيمة وشهرة بعد الشّعر وأقصد به الخطابة... "وتلتقي الخطبة مع الرّسالة في نقل مضمون معيّن إلى فرد أو جماعة"... ولكن الخطبة تختلف عن الرّسالة في عدّة أمور أهمّها: 1 – أنّ الخطبة غالبا بنت البديهة والارتجال، وهي بنت ساعتها أو لحظتها بلا إعداد أو تهيّؤ. أمّا الرّسالة فيسبقها التّأنّي وتتطلّب إعمال العقل، وقد تقتضي المراجعة والمعاودة. 2 – وهي نتيجة للسّمة الأولى: أنّ عنصر الفكر في الرّسالة يكون – في الأغلب الأعمّ – أحضر وأقوى في الرّسالة منه في الخطبة. 3 – الرّسائل أدلّ وأصدق في التّقييم الفكريّ والفنّيّ وأقدر على تحديد ملامح صاحبها من الخطب، لأنّ الخطب تنقل – غالبا – مشافهة وقد لا تسجّل الخطبة إلاّ بعد مضي عشرات من السّنين. أمّا الرّسائل فهي أبقى وأثبت في الزّمن، لأنّها "وثائق" مسجّلة مكتوبة. وهذا هو السّرّ في كثرة الرّوايات وتضاربها في نقل الخطب وقلّ ذلك في الرّسائل)[2].

(وبتحديدهم للخطابة في مقابل الرّسالة أظهروا اختلافهما عن بعضهما من ناحية الوظيفة الإيلاغيّة التي يتوصّل "إلى تحقيقها في الخطابة بواسطة عناصر إضافيّة تعود إلى تشخيص الخطيب" الذي يشافه الجمهور، ويستميله لأنّ الخطابة في الاصطلاح هي "فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته" للتّأثير فيه. أمّا في الرّسالة فإنّ اللّغة والكتلة وحدهما يجب أن يوما بهذا الدّور، ولذلك "كان الاهتمام بثقافة الكاتب ضروريّا إلى درجة أنّ بعض الكتب التي خصّصت لموضوع الرّسالة جاءت في ثقافة أديب الرّسالة، وليس في أدب الرّسالة" شكلا ومضمونا)[3].

نوع الرّسائل من حيث الطّول والقصر:

(والرّسالة تقصر أو تطول دون أنْ يؤثّر ذلك على بنائها الفنّيّ، وهي تقع في ثلاثة أقسام: رسائل طوال تجري مجرى الكتب المصنّفة، وهي تتيح لمنشئها أن يُظهر مهارته الفنّيّة وثروته الفكريّة والثّقافيّة، فيسرف في عرض المسائل والقضايا التي يريد أن يوضّحها: ومن ذلك رسالة طوق الحمامة، ورسالة التّوابع والزّوابع. والثّاني رسائل دون ذلك الطّول كرسالة ابن غرسية في الشّعوبيّة، ورسالتي ابن زيدون اجدّيّة والهزليّة. والثّالث رسائل قصار كنحو ما تجري به العادة في المراسلة والمكاتبة)[4].

فنّ الرّسالة بين الشّعر والنّثر:

(تتميّز الرّسالة الفنّيّة من بين ألوان النّثر الفنّيّ الأخرى بالمرونة الفنّيّة والأسلوبيّة التي تتيح لمنشئها مجالا واسعا لإظهار مقدرته على التّفنّن في أسلوبها والارتقاء به إلى درجة تجعلها شعرا منثورا. ذلك أنّ تلك المرونة تسوّغ للرّسالة الفنّيّة قبول خصائص الشّعر من خيال وتصوير وتعبير عاطفيّ، وعناية بالزّخارف المعنويّة واللّفظيّة،

---

[1] جابر قميحة: أدب الرّسائل في صدر الإسلام الجزء الأوّل عهد النّبوّة، ص: 11.

[2] جابر قميحة: أدب الرّسائل في صدر الإسلام الجزء الأوّل عهد النّبوّة، ص: 12.

[3] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 34.

[4] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 85.

عدا الوزن والقافية. وممّا يؤكّد ذلك ما جاء في "الذّخيرة" من أنّه عندما تولّى ابن زيدون الكتابة في حضرة المعتضد بن عبّاد، كان أهل مشرق الأندلس يقولون: "تأتي إشبيلية كتبٌ هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور")[1].

(ابن طباطبا العلويّ كان وجد أنّ هناك علاقة قويّة بين القصيدة والنّثر الذي يقوم عنده مقام الرّسالة، ويقول: "فمن الأشعار أشعار محكمة، أنيقة الألفاظ، // عجيبة التّأليف، وإذا نقضت وجُعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها")[2].

(هذه الرّسائل أقرب إلى الفنون الشّعريّة منها إلى الرّسائل النّثريّة، حيث أنّ لفظ رسالة غالبا ما كان يختصّ بالنّثر دون الشّعر، حتّى لا يكاد ينصرف إلاّ إليه)[3].

يقول أبو القاسم الكلاعيّ عن بناء الرّسالة وأسلوبها: ("الكتابة والشّعر شيئان متنافران"، ومع ذلك فرأي الكلاعيّ يقبل المناقشة لأنّ الواقع الإبداعيّ كان عكس هذا الزّعم، فالتّناوع بين الشّعر والرّسالة وصل درجة كبيرة لم يقتصر فقط على التّناوع الموضوعيّ بل حتّى على مستوى بروز بلاغيّة الرّسالة، وتداخل الشّكل حيث أصبحت بعض // النّصوص مدمجة للشّعريّ والنّثريّ، إمّا بحلّهما في قالب واحد، أو بالتّنقّل بينهما)[4].

(أمّا ما يتعلّق بالرّسالة والخطابة فذلك أمر مختلف عمّا كان بينهما وبين الشّعر، فهما تختلفان عن الشّعر في أنّ الوظيفة الشّعريّة تتراجع فيهما لتهيمن الوظيفة الإبلاغيّة. وقد حدّد العرب الخطابة في مقابل اللّغة القياسيّة من خلال أنّها توظّف الإمكانيّات البلاغيّة، واللّغويّة والنّحويّة والصّرفيّة كما حدّدوها في مقابل بعض أنواع الأدب الأخرى، بحيث أنّهم أدرجوها ضمن الشّفويّ بشكل عامّ ومقارنتها بالمكتوب، وجعلوها كمنطوق أكثر تحرّرا من المكتوب)[5].

بناء الرّسالة:

(للرّسالة الفنّيّة بناء خاصّ، وشكل فنّيّ معروف، وسمات معيّنة هي بمثابة الأركان الأساسيّة التي تُبنى عليها الرّسالة، والتي لابدّ من توافرها وإيداعها في كلّ قطعة نثريّة تنتمي إلى أدب الرّسائل الفنّيّة، فالرّسالة الفنّيّة قطعة نثريّة واحدة تتجزّأ في ثلاثة أقسام وعناصر مختلفة، هي: البداية أو الصّدر والمتن ثمّ النّهاية أو الختام، ولكلّ عنصر من هذه العناصر طابعه الخاصّ، ففي البداية غالبا ما يخاطب الكاتب فيه من أُرسلت إليه الرّسالة، وفي المتن يتناول الكاتب الموضوع الذي أُنشأت من أجله الرّسالة، وفي النّهاية يدعو الكاتب بالسّلام لمن كتب إليه الرّسالة. وهناك اتّصال وثيق بين هذه العناصر التي تكوّن الشّكل الفنّيّ المميّز للرّسالة بين أشكال النّثر الفنّيّ الأخرى)[6].

أغراض الرّسالة:

---

[1] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 86.

[2] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 83، 84، (ابن طباطبا: عيار الشّعر، ص:07).

[3] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 80.

[4] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الأندلسيّ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007 / 2008، ص: 32، 33.

[5] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 33.

[6] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 85.

(للرّسائل الفنّيّة أغراض متعدّدة لا تنجح فيها غيرها من ألوان النّثر الفنّيّ الأخرى، إذ إنّ لكلّ لون ميدانه الخاصّ به، فأغرتض الرّسائل في عرف النّقّاد القدامى تدور حول السّلطانيّات من: "الأحماد، والأذمام، والثّناء، والتّقريظ، والذّم والاستصغار، والعدل وما إلى ذلك..."، إلى جانب ما يكتبه العمّال والولاّة إلى أمرائهم، وتدور أيضا حول الإخوانيّات من: استعطاف، ووعيد، واعتذار، وعتاب، وشكر، وشوق وغيره، وتدور أيضا حول موضوعات أخرى تتعلّق بالمجتمع وجوانبه المختلفة، وبالنّفس الإنسانيّة وخصالها، أي أنّ الرّسائل تعالج موضوعات مختلفة: سياسيّة واجتماعيّة وخلقيّة وذاتيّة وأدبيّة وغيرها)[1].

اتّساع مجالات الرّسالة:

(من النّاحية الموضوعيّة تعدّدت آفاق الرّسائل الرّسميّة، واتّسعت ميادينها، بتعدّد مهامّ الكتّاب ومسؤوليّاتهم، فزادت تلك الرّسائل التي تعالج الموضوعات الإداريّة والتّنظيميّة والسّياسيّة والعسكريّة وغيرها، كذلك فقد نمت الرّسائل الخاصّة، وأخذت تعالج موضوعات ذاتيّة جديدة لم تعالجها من قبل كالشّكوى والعتاب والذّمّ والشّكر وغيرها)[2].

تشابه رسائل الأندلس والمشرق:

(يحسّ الباحث أنّ الخصائص الفنّيّة لهذه الرّسائل تشبه إلى حدّ بعيد تلك // الخصائص الفنّيّة التي اتّسمت بها الرّسائل في المشرق أيّام الدّولة الأمويّة، فهي تتّسم بالبساطة والبعد عن التّعقيد، والإيجاز في القول والقصد في التّعبير، والابتعاد عن المحسّنات البديعيّة إلاّ ما جاء فيها عفو الخاطر دون تكلّف أو افتعال، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّ المشرق كان هو المصدر الأوّل للاتّجاهات الأدبيّة والثّقافيّة. إضافة إلى أنّ معظم كتّاب هذا القرن كانوا مشارقة الأصل والثّقافة، فساروا على ما عُرف في المشرق من أساليب بيانيّة)[3].

الرّسائل السّياسيّة (الأمويّين):

(تزخر كتب التّاريخ والأدب برسائل سياسيّة كثيرة أُثرت عن هذا العصر، وحقّا هناك كتب تزيّدت في هذه الرّسائل ونقصد كتب الشّيعة من مثل شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة وكذلك كتاب الإمامة والسّياسة المنسوب إلى ابن قتيبة. ولكن إذا نحّينا هذين الكتابين وأضرابهما واعتمدنا على الكتب الوثيقة من مثل الطّبريّ والبيان والتّبيين والكامل للمبرّد استقبلتنا وخاصّة في الطّبريّ سيول من هذه الرّسائل كتبتها على مرّ العصر وأحداثه فرق الخوارج والشّيعة والزّبيريّين ومن ثاروا على الدّولة الأمويّة أمثال ابن الأشعث، كما كتبها خلفاء بني أميّة وولاّتهم وقوّادهم)[4].

رسائل الخوارج:

---

[1] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 86.

[2] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 90.

[3] فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، ص: 89، 90.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، دار المعارف، ط 11، مصر، ص: 456، 457.

(لن نستطيع أن نعرض كلّ ما رُوي للخزارج من رسائل، لكثرتها، ومن ثَمَّ سنكتفي بالحديث عن أهمّ رسائلهم، ومعروف ما شجر بينهم من خلاف أدّى كما مرّ بنا إلى تفرّقهم أربع فرق، هي الأزارقة والنّجديّة والصُّفريّة والإباضيّة)[1].

رسائل الشّيعة:

(رسائل الشّيعة في هذا العصر كثيرة، وأوّل حادث تكثر رسائلهم فيه استدعاء أهل الكوفة وما كان بينه وبينهم من مراسلات تخضّ على الثّورة على بين أميّة لظلمهم الرّعيّة واغتصابهم الخلافة من أصحابهم الشّرعيّين. ونمضي بعد مقتله فتلقانا حركة التّوّابين، ويصوّر زعيمهم سليمان بن صرّد في مكاتبته لبعض أصحابه ندَمَهم على خذلان الحسين، وأنّه ليس لهم من محرج ولا توبة إلاّ بالثّأر من قاتليه. سرعان ما تنشب حركة المختار الثّقفيّ لعهد ابن الزّبير، ويستولي على الكوفة، ويُكثر من المكاتبة إلى شيعته وإلى ابن الحنفيّة، ويكتب إلى بعض زعماء البصرة مهدّدا متوعّدا إن لم يتبعوه على شاكلة هذه الرّسالة التي أرسل بها إلى الأحنف زعيم تميم، وفيها يقول: // "بسم الله الرّحمن الرّحيم، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومَنْ قِبَلَه، فَسِلْمٌ أنتم، أمّا بعد فويل امّ ربيعة من مضر، فإنّ الأحنف مُوردٌ قومَه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصّدر، وإنّي لا أملك ما خُطَّ في القدر، وقد بلغني أنّكم تُسَمُّونني كذّابا، وإنْ كُذّبتُ فقد كُذّبَتْ رسلٌ من قبلي، ولست بخير من كثير منهم". وفي الرّسالة خصائصه التي مرّت بنا في خطابته، إذ كان يُعنى باختيار ألفاظه والسّجع في كلامه، وفيها إيهاماته وادّعاءاتها إذ يشير من طرف خفيّ إلى أنّه يُوحَى إليه، ومن ثمّ كان يستخدم السّجع كثيرا في خطابته وأحاديثه كما استخدمه في الرّسالة الآنفة)[2].

نموذج لرسالتين (الحجّاج وقطريّ):

(يسوق المبرّد في تسويق هذا الخلاف رسالتين متبادلتين بين نجدة بن عامر الحنفي زعيم النّجدات ونافع بن الأزرق، فنجدة يراجعه في مقالته ونافع يحتجّ لها. والرّسالتان وثيقتان طريفتان في بيان مقالتي النّجدات والأزارقة. ومرّ بنا كيف قاد الأزارقة مع قوّاد مصعب بن الزّبير حربا عنيفة على الرّغم من قتل قائدهم نافع في وقعة دولاب، فقد ظلّوا يحاربون قائده المهلّب، حتّى // إذا دخلت العراق في طاعة عبد الملك مضوا في ثورتهم، وظلّت الجيوش تُجّه إليهم، يوجّهها ولاة العراق وخاصّة الحجّاج، وكان زعيمهم لعهده قطريّ بن الفجاءة، ونرى الحجّاج يراسله مهدّدا متوعّدا، ويردّ عليه قطريّ بنفس الصّورة من التّهديد والتّوعّد، ونحن نسوق رسالتين لهما تصوّران كيف كان يتراسل الولاّة مع الثّائرين من خوارج وغير خوارج، أمّا رسالة الحجّاج فتجري على هذا النّمط: "سلام عليك، أمّا بعد فإنّك مرقتَ من الدّين مروق السّهم من الرّمية، وقد علمت حيث تجرْثمْتَ، ذاك أنّك عاصٍ لله ولولاة أمره. غير أنّك أعرابيّ // جلف أمّيٌّ تستطعم الكسرةَ وتستشفي بالتّمرة، والأمور عليك حسرة، خرجتَ لتنال شُبعة، فلحق بك طغامٌ صلوا بما صليتَ به من العدش فهم يهزّون الرّماح ويستنشئون الرّياح، على خوفٍ وجهدٍ من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم ممّا جهلوا معرفته، ثمّ أهلكهم الله بنزحتين، والسّلام".

وأجابه قطريّ: "سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقَمَهُ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظل عبه أهل السّفال وهدى به من الضّلال ونصر به عند استخفافك بحقّه. كتبتَ إليّ تذكر أنّي أعرابيّ

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 457.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 459.

جِلْفُ أمّيٌّ أستطعم الكسرة، وأستشفى بالتّمرة، ولعمري يا ابن أمّ الحجّاج إنّك لَمُتَيَّهٌ في جِبِلَّتكَ، مُطْلَخِمٌّ في طريقتك، واهٍ في وثيقتك، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك، يستَ واستيأستَ من ربّك، فالشّيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقَك، ولا تنازعه خناقَك، فالحمد لله الذي لو شاء أبرزَ لي صفحتَك، وأوضح لي صلعتك، فوالذي نفسُ قطريّ بيده لعرفت أنّ مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال، مع أنّي أرجو أن يدحض الله حجّتك، وأن يمنحني مهجتك")[1].

عن الحجّاج:

(كان صنيعة عبد الملك، فهو الذي أظهره، وما زال يرفع من أمره حتّى ولاّه العراق وخراسان، وكان إذا كتب إليه تأنّق ما استطاع في تعبيره، ومن خير ما يصوّر ذلك رسالة احتفظ بها الجاحظ، يصف فيها لعبد الملك خصبا بعد جدب ومطرا بعد قحط، وهي تجري على هذا النّمط: "أمّا بعد فإنّا نخبر أمير المؤمنين أنّه لم يُصب أرضَنَا منذ كتبتُ أخبره عن سقيا الله إيّانا إلاّ بما بلّ وجهَ الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرّذاذ، حتّى دقعَتْ الأرضُ واقشعرّتْ واغبرّتْ وثارت في نواحيها أعاصير تذرو دُقاقَ الأرض من ترابها، وأمسك الفلاّحون بأيديهم من شدّة الأرض واعتزازها وامتناعها، وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرُها، وشيكٌ تنكُّرُها، سَيّئٌ ظنُّ أهلها عند قحوط المطر، حتّى أرسل الله بالقَبول يوم الجمعة، فأثارتْ زِبْرِجًا متقطّعًا مُتَمَصِّرًا، ثمّ أعقبته الشّمالُ يوم السّبت، فطحْطحتْ عنه جِهَانَه، وألّفتْ مُتَقَطِّعَهُ، وجمعت مُتَمَصِّرَه، حتّى انتضد فاستوى، وطما وطحا، وكان جونًا مُرْتَعِنًّا، قريبًا رواعدُه، ثمّ عادت عوائدُه بوابلٍ منهملٍ // مُنْسَجِلٍ، يردف بعضُه بعضًا، كلّما أردف شُؤْبُوبٌ أردفته شَآبيبُ لشدّة وقعه في العراضِ. وكتبتُ إلى أمير المؤمنين، وهي ترمي بمثل قطع القطن، قد ملأَ اليبابَ، وسدَّ الشّعاب، وسقى منها كلّ ساق. فالحمد لله الذي أنزل غيثَه ونشر رحمتَه من بعد ما قنطوا، وهو الوليُّ الحميدُ، والسّلام")[2].

الفنّ وكثرة الرّسائل (عن الحجّاج):

(نراه يُكثر من مراسلة المهلّب وحثّه على الفتك بالخوارج الأزارقة حتّى لا تقوم لهم قائمة، كما يُكثر من مراسلة قوّاده في حروب الخوارج الشّبيبيّة وفي فتنة ابن الأشعث وحروب خراسان. ورسائله مثل سياسته التي اشتهر بها تقطر شدّة ووحدة، حتّى في مخاطبته لبعض الأمراء، فقد كتب إلى سليمان بن عبد الملك – وهو لا يزال وليّا للعهد – من رسالة له: " إنّما // أنت نقطة من مداد، فإن رأيتَ فيّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنتُ لهما، وإلاّ فأنا الحجّاج وأنتَ النّقطة فإنْ شئتُ محوتُك وإنْ شئتُ أثبتُّك)[3].

الرّسائل الوعظيّة في عهد عمر:

(أخذت تشيع، وخاصّة منذ أواخر القرن، كتابات وعظيّة كثيرة، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنّه كان يكتب إلى الوعّاظ أنْ يرسلوا إليه بعظاتهم، ويُرْوَى أنّه لمّا ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصريّ أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فدبّج له رسالةً طويلةً استهلّها بقوله: "اعلم يا أمير المؤمنين أنّ الله جعل الإمام العادل قِوامَ كلّ ماثلةٍ وقصدَ كلّ جائر، وصلاحَ كلّ، وقوّةَ كلّ ضعيفٍ، ونصفةَ كلّ مظلومٍ، ومفزعَ كلّ ملهوفٍ. والإمامُ العدلُ يا

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 757، 458.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 461، 462.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 460، 461.

أمير المؤمنين كالرّاعي الشّفيقِ على إبِله، الرّفيف بها، الذي يرتاد لها أطيبَ المراعي، ويذودها عن مراتع الهَلَكَة، ويحميها من السّباع، ويكفيها من أذى الحَرّ والقُرّ. والإمامُ العدلُ يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغارا ويعلّمهم كبارا، يكتسب لهم في حياته، ويدّخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأمّ الشّفيقة البَرَّة بولدها، حملتْه كرها، ووضعتْه كرها، وربّتْه طفلا، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، تُرضعه تارةً وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتمّ بشكايته")[1].

(يُروى أنّ [غيلان الدّمشقيّ] كتب إلى عمر بن عبد العزيز يعظه في رسالة طويلة، منها قوله: "اعلم يا عمر أنّك أدركتَ من الإسلام خَلقا باليا، ورسما عافيا، فيا ميّتُ بين الأموات لا ترى أثرا فَتَتَّبِعُ ولا تسمع صوتا فَتَنْتَفِعُ، طَفِئَ أمرُ السّنّة، وظهرت البدعة، أُخيفَ العالِمُ فلا يتكلّم، ولا يُعطى الجاهلُ فيسأل")[2].

من خصائص الرّسالة:

(السّجع: بحيث أصبح التّسجيع شرطا من شروط التّرسّل، وهو ثمرة من ثمار التّأنّق لما يقتضيه من العناية في إتقانه، فالرّسالة المسجّعة يظهر فيها التّأنّق أكثر من غير المسجّعة والسّجع إذا أُتقنت صناعتُه أكسب المعنى قوّة)[3].

(الإكثار من الخيال الشّعريّ: حتّى أصبح سجعهم كالشّعر المنثور لكنّه مقفّى، فلا يعوزه غير الوزن ليصير شعرا يُتغنّى به، وينشر في الأعياد والأفراح والمناسبات الأخرى. كثرة تضمين مراسلاتهم الأمثال والنّكت الأدبيّة، أو العبارات التّاريخيّة أو العلميّ' التي تحتاج إلى شرح لغرابت لفظها، أو لتعقيد حبكها وعمق مرادها)[4].

(أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار في أثناء مراسلاتهم، وهو ترصيع جميل يزيد المعنى طلاوة ووضوحا، ويكسبه قوّة على إبداء ما في خاطر الكاتب. صار للرّسائل نمط خاصّ: فالرّسالة تبدأ غالبا بمخاطبة المرسل إليه بلقبه أو نعته بعد الإشارة إلى كتابه، وقد يأتي اللّقب مشفوعا بالدّعاء بصيغة الغائب، وقد يجعلون الخطاب بصيغة الغائب وقد يجعلون الخطاب بصيغة المخاطب في بعض الأحوال)[5].

(تفرّع التّرسّل إلى أبواب عملا بسنّة النّشوء، كما تفرّع الشّعر، فصارت الرّسائل تقسّم إلى رسائل للتّهنئة والتّعزية والمديح والرّثاء، وإلى الأخويّات والسّلطانيّات ونحو ذلك. امتازت مقدّماتهم بتقديم الحمدلة والصّلاة على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وتختم بآية يحسن الختام بها أو بالحسبلة أو السّلام ونحو ذلك من الخواتيم الحسنة)[6].

أصناف كتّاب الرّسالة:

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 462، 463.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، ص: 463.

[3] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 29.

[4] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 29.

[5] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 29.

[6] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 29.

(يقوم المنشئ – الكاتب – بدور ذي أهمّيّة تتجاوز أهمّيّة المرسل إليه "لأنّه المسئول الأوّل عن إنجاح التّوصيل، ولهذا السّبب اهتمّ المؤلّفون في نقد الرّسالة بالكاتب، فجعلوا الكتّاب في فئات ليس حسب الغرض (مادح، هاج، متغزّل) أو الشّكل (شاعر، راجز) كما في الشّعر، ولكن حسب التّخصّص أو المهنة، فأصناف الكتّاب حسب ما ذكره ابن مقلة خمسة: كاتب خطّ، وكاتب لفظ، وكاتب عقد، وكاتب حكم، وكاتب تدبير؛ فكاتب الخطّ هو الورّاق والمحرّر، وكاتب اللّفظ هو المترسّل، وكاتب العقد هو كاتب الحساب الذي يكتب للعامل، وكاتب الحكم هو الذي يكتب للقاضي ونحوه ممّن يتولّى النّظر في الأحكام، وكاتب التّدبير هو كاتب السّلطان أو كاتب وزير دولته")[1].

تعريفات عامّة: الإنشاء، الكتابة، الرّسالة:

(علم الإنشاء صناعة يُعرف بها كيفيّة استنباط المعاني وتأليفها مع التّعبير عنها بلفظ يطابق مقتضى الحال ومداره على أصوله وفنونه. و"أصولُه خمسة" موارده ومحاسنه ومبانيه وعيوبه وطبقاته. فـ"مواردُه ثلاثة" الألفاظ ومرجعها إلى الفصاحة، وتركيب الكلام ومرجعه إلى البلاغة، وإيراد المعنى بطرق مختلفة الدّلالة، ومرجعه إلى البيان، و"محاسنه" الإيضاح والتّصريح والسّهولة والجزالة [...] و"مبانيه" لغات العرب الذين يُعدّون أمراء الكلام ويصرفونه كيف شاؤا[2]، فهم أصحاب اللّفظ الرّشيق، والمعنى الدّقيق، وبلغتهم نزل القرآن، وبها يُدرك البيان، والنّاس إلى قولهم يصيرون، وبهديهم يأتمّون. و"عيوبُه" كثيرة كالإسهاب، والرّكاكة، ويكون مستهجنا، أو شاردا وحشيّا، أو ساقطا سوقيّا. و"طبقاتُه" أيْ أنواعه فيتصرّف الكاتب فيه من محاورته إلى مفاخرته // ومن مغازلته إلى مساجلته، ومن جدّه المعجب إلى هزله المطرب. ويلزم لمعرفة ما ذُكر تتبّع شعر البلغاء ونثرهم في خطبهم ورسائلهم)[3].

(الكتابة وتُعرف بالمراسلة هي مخاطبة الغائب بلسان القلم وأحسنها ما وفت بالمقصود، وقامت مقام مرسلها في إظهار مراده. "فائدتها" تجلّ عن الوصف وتفوق عن الحصر. لأنّها ترجمان اللّبّ. وضمير القلب. ونائبة عن الغائب. في قضاء المآرب. وهي التي تربط الوداد ولو طال البعاد. و"طريقتها" أن تكون المخاطبة بليغة سهلة فصيحة. مع مراعاة الأحوال. في درجة المخاطِب والمخاطَب. من حيث علوّ المقام وانخفاضه ومساواته. وهذه القاعدة يتفرّع عنها جميع قواعد الكتابة)[4].

(الإنشاء المألوف في الأعصر الغابرة هو ما يلتزم فيه بالتّسجيع والتّجنيس وما شاكلهما من الصّناعات اللّطيفة. وأمّا في هذا العصر فالمألوف منه الإنشاء المرسل المنسجم وإليك ما قاله ابن عبد ربّه في العقد الفريد:

---

[1] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، ص: 32، نقلا عن: رشيد يحياوي: الشّعريّة العربيّة الأنواع والأغراض، ص: 127.

[2] هكذا.

[3] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، مطبعة جريدة الإقبال، ط 3، بيروت، 1331 (1913)، ص: 7، 8.

[4] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 10.

"شرف الكلام ما كان كلّه حسنا. وأرفعه قدرا. وأعظمه في القلوب وقعا. وألّه على اللّسان عملا. ما دلّ بعضه على كلّه. وكفى قليله عن كثيره. وشهد ظاهره على باطنه")[1].

(أمّا كتابة الإنشاء فالمراد بها كلّ ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني: من المكاتبات والولايات والمسامحات والإطلاقات ومناشير الإقطاعات والهُدَنِ والأمانات والأيْمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها)[2].

تحدّث (... قدامة بن جعفر في مؤلَّفه (نقد النّثر) عن اشتقاق مصطلح الرّسالة والتّرسّل بقوله: "التّرسّل من تراسلتُ أترسّلُ ترسّلاً، ولا يقال إلاّ لمن يكون فعله في الرّسائل قد تكرّر، وراسل يُراسل مراسلة فهو مراسل. وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة، وأصل الاشتقاق في ذلك أنّه كلام يُراسل به من بَعُدَ وغَابَ فاشتقّ له اسم التّرسّل، والرّسالة من ذلك")[3].

(أقرب اصطلاح للرّسالة أنّها "تسمية واسعة لأيّ نصّ موجّه إلى فرد أو جماعة"، ولها أغراض عديدة منها الوصف والمدح والدّعوة والفخر، ففيها أغراض وأمور كثيرة، "يرتّبها الكاتب من حكاية حال من عدوّ أو صديق، أو مدح وتقريض أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك ممّا يجري هذا المجرى"، وما يأتي على منواله من أمور الحياة الواسعة)[4].

(هي كذلك في عرف أهل الاصطلاح نمط لإنجاز الخطاب الأدبيّ تختلف اختلافا كبيرا عن النّمط الشّعريّ والخطابيّ من حيث نوعيّة الجمهور، وأداة التّوصيل، وبناء الأسلوب، وحتّى طبيعة المضمون، ويبقى الاختلاف الهامّ في أنّها موجّهة إلى شخص معروف من الكاتب، وأنّها تحدّد في أغلب الأحيان بمعطيات خارجيّة من ظرف، وأحداث، وغيرها)[5].

(هذا النّمط الخطابيّ المميّز تُستثنى منه تلك الرّسائل التي أخذت صفة الكتب، ولم يكن لها من هذا الاصطلاح سوى فضل التّسمية، وكانت موجّهة لجمهور واسع غير محدّد، ولذلك كانت لتحديد المُخاطَب أهمّيةٌ كبيرةٌ. وأهمّية المخاطَب المحدّد في تأليفهم تظهر في الوعي بإثارتها، ولذلك طوّلوا الكلام في أنواع المخاطَبين: ملوك، ووزراء، مسلمين، ونصارى، وغيرهم، وفيما يكتب لكلّ واحد منهم، حتّى أنّ الحميديّ يعرّف الرّسالة بتأثيرها في المخاطَب حين قال: "وأمّا البلاغة الرّسائليّة فهي حسن التّوصّل إلى استمالة المخاطَب، وتسهيل ما صعب على المراسل")[6].

عن الرّسالة:

---

[1] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 9.

[2] القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922، ص: 54.

[3] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 24.

[4] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 25.

[5] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 25.

[6] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 25.

(تقسّم معظم الرّسائل إلى عشرة أقسام والبعض حصرها بأقلّ من ذلك، فقال إنّما الكلام أربعة أقسام (سُؤالُك الشّيء) و(سؤالك عن الشّيء) و(أمرك بالشّيء) و(خبرك عن الشّيء)، فهذه الأقسام الأربعة لا تزيد ولا تنقص. فإذا طلبتَ فعرّض ولا تصرّح، وإذا سألتَ فأوضح، وإذا أمرتَ فاحكم، وإذا خبرتَ فحقّقْ)[1].

(المراد بكيفيّة الرّسالة وآدابها اتّباع الطّريقة المألوفة عند أرباب الأدب وهي تشتمل على سبعة فوائد الصّدر والابتداء والغرض المقصود والختام والإمضاء والتّاريخ والعنوان)[2].

(الابتداء هو ما يُذكر بعد الصّدر في أوّل الكتاب من (تحيّة وسلام وشوق وهيام). وكانت عادة قدماء العرب الاختصار والاقتصار فيه كما هو مقتضى البلاغة في مقام المراسلة، بخلاف من كانوا يُطيلون فيه حتّى يتوهّم أنّه هو المقصود بالذّات من الرّسالة. وأن الغرض فضلة زائدة فيها. ثمّ من الرّسائل ما يكون ابتداؤها أطول من ديباجة مؤلّف فهذا منافٍ للبلاغة، إذ الدّيباجات لا تنزل منزلة المقاصد)[3].

(ما يُكتب للحضرة العلّيّة السّلطانيّة أيّدها الله: "حضرة صاحب الخلافة العظمى والإمامة الكبرى السّلطان الأعظم والخاقان[4] الأفخم صاحب الشّوكة والمهابة والإقبال")[5].

(الغرض المقصود هو الدّاعي إلى إنشاء الرّسالة فهو فيها العمدة وكلّ ما سواه فضلة. ويترتّب على هذا أن يكون الكلام كلّه مسوقا ذاهبا في سبيل تقريره وإلاّ فقدْ فات المقصود وانعكس الموضوع)[6].

(الختام هو مقطع الرّسالة وهو في الرّسائل التّجاريّة وما شاكلها يلزم أن يكون في نهاية من الإيجاز. وأمّا في الرّسائل العالية أو الجدليّة فشرطه أن يكون أشبه بخلاصة لمضمونها، وكثيرا ما ينقطع بجملة دُعائيّة)[7].

(عريضة تهنئة بنيل المطلوب والوعد بالحضور): (أحمد الله على سلامة الجَناب. الحائز على حسن المآب. وأهنّئه بالفوز بمطلوبه. وكمال مرغوبه. ود أصبح الفؤاد مسرورا وطرف العين قريرا. وكنت وعدت الجناب. بأنّني سأحضر إلى تلك الرّحاب. والآن أكرّر البيان على طرف لسان القلم أنّني سأتشرّف سعيا على الرّأس لا سعيا على القدم لنحظى بمشاهدة محيّاكم الأنور. ونجتني من كمال لطفكم الأزهر. والله تعالى يوفّق أمورنا لما يحبّه ويرضاه والسّلام عليكم ورحمة الله)[8].

الإنشاء والموهبة وسعة العلم:

---

[1] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 24.

[2] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 13.

[3] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 17.

[4] الخاقان لفظ فارسيّ معناه السّلطان، الحاكم.

[5] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 13.

[6] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 18.

[7] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 18.

[8] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 63.

(كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكلّ نوع من الكتابة، ضرورة أنّ كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولاياته ومكاتباته ممّا يتعلّق بكتابة الأموال إلى أنْ يمثّل لهم في وصاياه من صناعتهم ما يعتمدونه، ويبيّن لهم ما يأتونه ويَذَرُونَهُ، فلا بدّ أن يكون عالما بصناعة مَنْ يكتب له)[1].

(... اشتمال كتبة الإنشاء على البيان الدّالّ على لطائف المعاني التي هي زُبَدُ الأفكار وجواهر الألفاظ، التي هي حلية الألسنة، وفيها يتنافس أصحاب المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدّرّ والجوهر)[2].

(... ما تستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذكاء القريحة، وجَودة الرّويّة: لما يحتاج إليه من التّصرّف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التي عبّر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها؛ وفي ذلك من المشقّة ما لا خفاء فيه على من مارس الصّناعة، خصوصا إذا طلب الزّيادة والعلوَّ على من تقدّمه في استعمالها، أو حذا حذوَ رسوم المبرّزين الذين ينتحلون الكلام ويُقعونَه مواقعَه مع مراعاة رشاقة اللّفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها لأنّ الحوادث والوقائع لا تتناهى ولا تقف عند حدّ)[3].

(على المنشئِ أن يتخيّر من الألفاظ ما يكون فصيحا بيّنا خفيفا على اللّسان. لذيذا في السّمع. فيترك الألفاظ المبهمة المحتملة أكثر من معنى واحد. فإنّ ذلك يشوّش فكر القارئ، ويعوقه عن العمل بالمقصود)[4].

(بلغ فنّ الرّسائل أوجه في القرنين الثّالث والرّابع الهجريّين، بحيث يمكن لنا أن نصف هذين القرنين بأنّهما يمثّلان الفترة الذّهبيّة لهذا الفنّ)[5].

((توقّف الجاحظ مرارا في كتاباته يشيد ببراعتهم في القول وعذوبة آدائهم وطلاوة صياغاتهم من مثل قوله: "إنّهم لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخَيَّرَة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السّهلة والدّيباجة الكريمة وعلى الطّبع المتمكّن وعلى السّبك الجيّد وعلى كلّ كلام له ماء ورونق وعلى المعاني التي إذا صارت في الصّدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للّسان باب البلاغة ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارت إلى حسان المعاني")[6].

(كان لابدّ لهم بجانب هذه القدرة البلاغيّة من أنْ يُتقنوا طائفة من المعارف وفي مقدّمتها علوم اللّسان العربيّ وعلم الفقه، وكان العلم الأخير ضروريّا لهم، لأنّهم كانوا يكتبون في شئون الخراج وفيما يجب على أهل الذّمّة أن يؤدّوه من أموال، وكذلك كان علم الحساب من الضّرورة لهم بمكان. وكانوا يلمّون بكلّ علم مثل الكيمياء والطّبّ والنّجوم، وأكبّوا على الفلسفة والمنطق ليدعّموا عقولهم. ولم يكن ذلك كلّ ثقافة الكاتب، فقد مضى يقرأ كلّ ما تُرجم من الحكمة اليونانيّة ومأثور // ما تبادله الإسكندر المقدونيّ وأرسطو من رسائل وما نُقل عن الفلاسفة

---

[1] القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922، ص: 54.

[2] القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922، ص: 55.

[3] القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922، ص: 55.

[4] عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، ص: 8.

[5] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 27.

[6] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 466.

اليونانيّين من أقوال وكذلك ما نُقل عن الهنود من حكم وقَصَصٍ يتّصل بتدبير الملك وخاصّة كتاب كليلة ودمنة)[1].

ارتباط فنّ الرّسالة بالإسلام:

(لمّا كانت الكتابة والقراءة أقلّ شيوعا عند العرب في الجاهليّة لم يكن لفنّ الرّسائل دور في حياتهم الأدبيّة والاجتماعيّة في ذلك العصر، وهذا خلافا للفنون الأخرى كالشّعر والخطابة والأمثال التي كانت منتشرة عندهم ومزدهرة، لكنْ مع مجيء الإسلام تغيّرت الحال، فالرّسول (ص) وهو النّبيّ الأمّيّ الذي لا يقرأ ولا يكتب كان يشجّع المسلمين على تعلّم القراءة والكتابة، وقد اتّخذ كتّابا يكتبون له القرآن الكريم، كما يكتبون له الرّسائل التي كان يبعث بها إلى زعماء المناطق، ورؤساء القبائل، وملوك الدّول كما فعل مع كسرى عظيم الفرس، وقيصر عظيم الرّوم)[2].

(عندما قامت الدّولة الإسلاميّة أُنشئ ديوان الرّسائل، وهذا الدّيوان يُعنى بشؤون المُكاتبات التي تصدر عن الخليفة إلى ولاّته وأمرائه وقادة جنده وملوك الدّول الأخرى، وقد كان الخليفة في أوّل الأمر هو الذي يُملي الرّسائل على كاتبه، ثمّ بمرور الزّمن أخذ الكتّاب يستقلّون بكتابتها ثمّ تُعرض على الخلفاء، وكان أسلوبها آنذاك تغلب عليه البساطة والوضوح، ويخلو من التّأنّق والتّصنّع، لكنّه شهد نقلة كبيرة في عهد هشام بن عبد الملك عندما تولّى مولاه سالم رئاسة ديوان الرّسائل في عهده ثمّ في عهد مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أميّة الذي تولّى أمر ديوانه عبد الحميد بن يحيى الكاتب، وقد عُرف بالبراعة في فنّ التّرسّل حتّى غدت مُكاتباته مضرب المثل في الجودة والإتقان حتّى قيل "بُدِئَتْ الكتابةُ بعبد الحميد")[3].

(كان الكتاب الدّيوانيّ نشرة دعائيّة تُبثّ من خلالها القوانين، وتعكس آراء الحكّام في إصدارهم للقوانين، والتّشريعات، وإذاعة الأخبار اليوميّة، التي تحمل إلى الأمّة أخبار الانتصارات والفتوحات، ولهذه الأسباب لم تَأْلُ السّلطة جهدا في البحث عن الكاتب الأنسب لهذه المهمّة، فكم من كاتب "بليغ أصاب الغرض في كتابه فأغنى صاحبه عن الكتائب، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب")[4]. محمود خياري: أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، ص: 49.

(فالكاتب الدّيوانيّ، إن لم يكن شاهد عيان للحادثة فهي قريبة منه، واقتصر نقل الرّواية على شخص أو شخصين، قبل أن تصل إليه، فالرّسالة الدّيوانيّة هي أقدم مصدر يجب العودة إليه لمعرفة الحادثة التّاريخيّة كما حدثت في الأصل)[5].

---

[1] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 466، 467.

[2] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 26.

[3] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 27.

[4] القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922، ص: 55.

[5] محمود خياري: رسائل الجهاد، أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، الجامعة الأردنيّة، قسم الدّراسات العليا، للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 1991، ص: 49.

(ولا تقتصر أهمّيّة الرّسالة الدّيوانيّة [...] على ما تحمله من سمات فنّيّة انفردت بها عن قرينتها في مصر والشّام، بل تتعدّى ذلك إلى إلقاء الضّوء على مجموعة من الحوادث التّاريخيّة الغامضة، التي نستخلص منها قضايا الأحداث التّاريخيّة وجملة من الجوانب الحضاريّة، كالجانب الإداريّ، وأهمّ الوظائف التي سادت [...] وأسلوب الحكم، والطّريقة التي تمّ بواسطتها تعيين الولاّة والقضاة والعمّال وقادة الجيش، إلى جاني هذا، فهي تبرز خطّ سير المجال الاقتصاديّ، والعلاقات الخارجيّة مع الدّول المختلفة في حالتي السّلم والحرب)[1].

(اتّسمت بصورة عامّة بوحدة موضوعيّة، بحيث نستطيع أن نضع لها عنوانا نستخلص منه محتوى الرّسالة)[2].

عناوين الرّسائل الدّيوانيّة الموحّديّة تنحصر في سبعة محاور أساسيّة، هي: رسائل البيعة، تقاديم الولاّة وقادة العسكر والقضاة، رسائل الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، رسائل الاعتداءات والشّكايات، رسائل التّوقيعات، المعاهدات، رسائل الجهاد[3].

(نشطت الكتابة في هذا العصر [العبّاسيّ الأوّل] نشاطا واسعا، فقد توفّر عليها مئات من أصحاب الأقلام يحدوهم في ذلك ما كانت تدرّه عليهم من أرزاق واسعة. وكان من يُظهر منهم مهارة في دواوين الخلافة سرعان ما يُرقّى إلى رياسة الدّيوان الذي يعمل فيه. وقد تُقْبِلُ عليه الدّنيا فيصبح رئيسا لمجموعة من الدّواوين، وقد يصبح وزيرا للخليفة يسوس الدّولة ويدبّر أمورها وشئونها، فإن لم يصبح وزيرا أصبح وايل لإقليم من الأقاليم مثل الحسن بن البحباح البلخيّ الذي كيب للمهديّ والهادي والبرامكة وقد وَلِيَ مصر في عصر الهادي والأمين)[4].

(كانت الكتابة في هذا العصر [العبّاسيّ الأوّل] الجسر الذي يصل الشّخص إلى أرفع المناصب، وكان من يتقنها من الوزراء والقوّاد والولاّة يلقى الإكبار // والإعجاب في كلّ مكان، وقد أخذ يسيل لها لعاب كلّ من أحسّ في نفسه قدرة عليها، حتّى يحظى بما يكفل له العيش فضلا عمّا قد يصيب من رغدٍ ونعيمٍ)[5].

(نبغ جماعة من أصحاب القرائح تعاونوا على ذلك حتّى صار للإنشاء في هذا العصر طريقة اتّخذها أهل العصور التّالية نموذجا نسجوا على منواله، وهي الطّريقة المدرسيّة في اصطلاح الغرب (Classique) وبعبارة أخرى إنّ الطّريقة المدرسيّة للتّرسّل العربيّ نضجت في هذا العصر كما نضج الإنشاء الرّومانيّ في عصر شيشرون ثمّ أخذ في التّقهقر)[6].

---

[1] محمود خياري: رسائل الجهاد، أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، ص: 49.

[2] محمود خياري: رسائل الجهاد، أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، ص: 51.

[3] يُراجع: محمود خياري: رسائل الجهاد، أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، ص: 54 - 108.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 465.

[5] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 465، 466.

[6] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 28.

للطّريقة المدرسيّة في الإنشاء العربيّ شروط منها: السّجع، الجناس والبديع، الإكثار من الخيال الشّعريّ، كثرة تضمين مراسلاتهم الأمثال والنّكت الأدبيّة، أكثروا فيه من الاستشهاد بالأشعار، صار للرّسائل نمط خاص، تفرّع التّرسّل إلى أبواب، اتّضاف مقدّماتهم بصيغ خاصّة[1].

(إنّ المادّة الفارسيّة السّياسيّة والأخلاقيّة المترجمة كانت من أهمّ المؤثّرات في رقيّ الكتابة الدّيوانيّة وتطوّرها، وحقّا أن هذا التّأثير بدأ منذ عبد الحميد الكاتب ولكنّه لم يبلغ أشدّه إلاّ في هذا العصر إذ اتّسع نقل الآداب الفارسيّة وكلّ ما أُثر عن ملوك الفرس ووزرائهم من عهود ووصايا ورسائل إلى العمّال والولاّة، ممّا سالت مادّته الغزيرة في كتابات الكاتب العبّاسيّ)[2].

(من ينظر نظرة عامّة في موضوعات الرّسائل الدّيوانيّة لهذا العصر يلاحظ أنّها كانت تتناول تصريف أعمال الدّولة وما يتّصل بها من تولية الولاّة، وأخذ البيعة للخلفاء وولاّة العهود، ومن الفتوح والجهاد ومواسم الحجّ والأعياد والأمان وأخبار الولايات وأحوالها في المطر والخصب والجدب، وعهود الخلفاء لأبنائهم، ووصاياهم ووصايا الوزراء والحكّام في تدبير السّياسة والحكم)[3].

(أخذت تتناول بعض الأغراض التي كان يتناولها الشّعر من تهنئات وتعزيات وشكر [...] التي تصوّر عواطف الأفراد، وقد تفنّنوا حينئذ طويلا في التّحميدات التي تُصدَّر بها الرّسائل، وتُنسب إلى الرّشيد أنّه أوّل من أمر أن تبتدئ مكاتباته بعد البسملة بالصّلاة على النّبيّ (ص)، وفي رواية ثانية أنّ يحيى البرمكيّ وزيرُه أوّل من زاد في الرّسائل: "وأسأله أن يصلّي على محمّد عبده ورسوله" وأنّه أنشأ في ذلك كتابا ذكر فيه فضل الأنبياء عليهم السّلام)[4].

أهمّية كتابة الرّسائل في عهد الرّسول (ص) والخلفاء الرّاشدين:

(... الكتابة أخذت تُستخدم استخداما واسعا لا في كتابة القرآن الكريم فحسب، بل في كتابة كثير من شئون المسلمين، وكان الرّسول عليه السّلام يكتب كثيرا من عهود الأمان ومن المعاهدات، كما كان يُكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام، وتزخر السّيرة النّبويّة لابن هشام وكتب الحديث والتّاريخ بهذه الكتب، وقد جمعها محمّد حميد الله الحيدر آبادي في كتابه النّفيس "مجموعة الوثائق السّياسيّة في العهد النّبويّ والخلافة الرّاشدة")[5].

كتاب الرّسول (ص) إلى وائل بن حُجْرٍ، (الرّسول (ص) لا يُعنى في هذه المعاهدة [عام الحديبيّة] بتحبير فنّيّ، بل هو يؤدّي غرضا سياسيّا في صورة موجزة، وكذلك كان شأنه في كتبه التي كان يرسلها إلى أمراء العرب، ونسوق لذلك مثلا كتابه الذي أرسله إلى وائل بن حُجْرٍ الحضرميّ وقومه إذ يقول عليه السّلام: "من محمّد رسول الله إلى

---

[1] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 29، بتصرّف.

[2] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 467.

[3] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 468.

[4] شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل، ص: 468.

[5] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 96.

الأقيال العباهلة[1] من أهل حضرموت بإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، في التَّيْعَةِ[2] شاة، والتَّيْمَةُ[3] لصاحبها، وفي السّيوب[4] الخُمْسُ، لا خِلاَطَ[5]، ولا وِرَاطَ[6]، ولا شِنَاقَ[7]، ولا شِغَارَ[8]، // فمن أجبى[9] فقد أَرْبَى[10]، وكلُّ مُسكر حرامٌ")[11].

معاهدة عام الحديبيّة: معاهدة الرّسول (ص) (التي كتبها بينه وبين قريش عام الحديبيّة، وهي تمضي على هذه الصّورة: "هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بنَ عمرو: اصطلحا على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين يأمن فيهنّ النّاس ويكفّ بعضهم عن بعض. على أنّه من أتى محمّدا من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم، ومن جاء قريشا ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه. وأنّ بيننا عيبةً مكفوفةً، وأنّه لا إسلالَ ولا إغلالَ. وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخله، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه")[12].

(تبعه الخلفاء الرّاشدون يهتدون بهديه في كتاباتهم وما يعقدون من معاهدات، فهم لا يقصدون إلى تنميق، إنّما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدّلالة. وليس من ريب في أنّنا لا نصل إلى عصر عمر حتّى تكثر المكاتبات السّياسيّة، فهو يكاتب قوّاده وولاّته، وهم يكاتبونه كلّما جدّت مشكلة، وكان يكتب إليهم أحيانا في سياستهم لمن يحكمونهم، وكتابه إلى أبي موسى الأشعريّ في القضاء ذائع مشهور)[13].

(إذا انتقلنا إلى عصر بني أميّة وجدنا الكتابة ترقى رقيّا عظيما، فقد جدّ كثير من المشكلات، وتعقّدت الحياة من جميع أطرافها المادّيّة والسّياسيّة والعقليّة، إذ تحضّر العرب، وأخذوا يستعيرون كثيرا من النّظم الأجنبيّة وموادّ الثّقافات لدى الأمم المفتوحة)[14].

---

[1] الأقيال ملوك الجنوب وأمراؤهم، والعباهلة: العظام، الثّابت ملكهم.

[2] التّيعة: الأربعون من الغنم، وهو أقلّ ما تجب فيه الزّكاة.

[3] التّيمة: الشّاة الدّاجنة غير السّائمة أو الرّاعية.

[4] السّيوب: جمع سيب، وهو المال المدفون أو المعدن.

[5] الخلاط: أن تخلط الغنم أو الإبل بغيرها لتُمنع من الزّكاة.

[6] الوراط: أن توضع الغنم أو الإبل بعيدا عن أعين من يجمعون الزّكاة.

[7] الشّناق: الخلاط.

[8] الشّغار: زواج في الجاهليّة أبطله الإسلام.

[9] أجبى: من الإجباء وهو بيع الزّرع قبل أن يبدو صلاحه.

[10] أربى: من الرّبا.

[11] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 97، 98.

[12] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، دار المعارف، ط 10، مصر، ص: 97.

[13] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 97، 98.

[14] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 98.

في هذا العصر (... الرّسائل وجدناها مثل الخطابة التي عاصرتها، فقد كانت هناك رسائل سياسيّة تصدر عن دواوين الخلفاء والولاّة أن عن خصومهم، ورسائل اجتماعيّة يتبادلها النّاس في أمور حياتهم الشّخصيّة، ورسائل دينيّة، منها ما يأخذ شكل الحوار والجدل)[1].

(نهضت الرّسائل السّياسيّة في هذا العصر نهضة واسعة، وهي نهضة تُرَدُّ إلى سببين: أمّا السّبب الأوّل فهو أنّ كثيرا ممّن كانوا يكتبونها كانوا يُعدّون في الذّروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجّاج وقطريّ بن // الفجاءة والمختار الثّقفيّ، وأمّا السّبب الثّاني فقيام ديوان الرّسائل وظهور طبقة من الكتّاب المحترفين في هذا الدّيوان، لا في دواوين الخلفاء وحدهم، بل أيضا في دواوين الولاّة، وكان قادة الجيوش أيضا يتّخذونهم، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته. ومعروف أنّ ديوان الخراج كان بقوم عليه في أوّل الأمر كتّاب من الأجانب، يكتبون فيه بلغاتهم الأصليّة، حتّى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الدّيوان إلى العربيّة، فأصبح الشّأن فيه كالشّأن في ديوان الرّسائل يليه العرب، ولم يلبث الأجانب أنْ سعوا إلى تعلّم العربيّة وشاركوا في ديوان الرّسائل نفسه)[2].

(بعد قيام دولة بني العبّاس أخذ أمراؤها يولون كتابة الرّسائل عناية أكثر من سابقيهم، ولهذا السّبب كثر الكتّاب، ونبغ كثير منهم في فنّ التّرسّل، وغدا مُؤَهّلاً إلى منصب الوزارة، ونستحضر في هذا المجال أسماء: يحيى بن خالد البرمكيّ، وابنه جعفر، ومحمّد بن عبد الملك الزّيّات، وأحمد بن يوسف الكاتب، وابن العميد، والصّاحب بن عبّاد، وعبد العزيز بن يوسف، وضياء بن الأثير، وغيرهم)[3].

دور العرب في النهضة بالرّسالة:

(من نهضوا بالكتابة السّياسيّة في هذا العصر إنّما هم العرب، وظلّوا على ذلك طويلا، حتّى أوشك القرن الأوّل للهجرة على الزّوال، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة في أوّل الأمر، حتّى إذا كان عصر هشام بن عبد الملك (104 – 124هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يُحسن اليونانيّة وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم، الذي تخرّج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسيّ الأصل)[4].

(كتابة الرّسائل السّياسيّة الرّسميّة نشأت في حِجْرِ العرب، ونمت تحت أيديهم، فقد أخذت في الظّهور منذ صدر الإسلام ومنذ أنْ جدّت تلك المشكلات التي اقتضت أن يكتب فيها الرّسول (ص) وخلفاؤه، وبمُضي الزّمن أخذت مشاكل الدّولة في التّعقّد، كما أخذ العقل العربيّ ينمو ويرقى، فمنت ورقيت معه تلك الصّناعة، وتوفّر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفّرت عليها جماعة من الكتّاب المحترفين الذين توظّفهم الدّولة للعناية بها، وحقّا يُقال إنّ العرب استعاروا نظم الدّواوين من لدن الفرس، // ولكنّ الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالي لم يجدوا لهم هذا الفنّ من كتابة الرّسائل السّياسيّة، إنّما أوجدته حياتهم وضروراتها السّياسيّة والإداريّة)[5].

---

[1] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 102.

[2] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 102، 103.

[3] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 27.

[4] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 103.

[5] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 103، 104.

(العرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم كما، كما أنّهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم، وكلّ ما يمكن أن يُلاحظ أنّهم أخذوا مع الزّمن يتأثّرون في نثرهم وشعرهم جميعا بالأجانب من الفرس وغير الفرس، وثمّ ذلك بحكم التّطوّر واشتراك هؤلاء الأجانب معهم في أدبهم، وما كان من نقل ثقافاتهم إلى العربيّة)[1].

(ارتفع شأن الرّسائل التي ساعد على ظهورها بكثرة وانتشارها، كما ساعد على قيامها، وتعزيزها اهتمام الوزراء والأمراء بها، فاستقلّ فنّ الرّسائل عن الكتابة الدّيوانيّة، وعالج موضوعات من الحياة، واعتمد الخيال في ابتكار الصّور، وكان هذا الفنّ في عهده الأوّل مطبوعا لا يلتزم السّجع إلاّ ما تقتضيه البلاغة، كما هي الحال في رسائل ابن زيدون، وابن شُهيد، وبعض رسائل ابن حزم. // ثمّ صار إلى تكلّف السّجع، والتّزيين، وتقلّب الجمل على المعنى الواحد، والإكثار من الأدعية والأمثال، والشّواهد الشّعريّة كما في رسائل ابن برد الأصغر، وقويت موجة التّنميق في المرحلة الأولى فغلبت الصّنعة، وكثر التّكلّف، وغدا النّثر في فنّ الرّسائل عبارات مرصوفة، ومعاني جافّة، وصورا مسجوعة، كما في رسائل لسان الدّين بن الخطيب)[2].

(من يقرأُ ما أُثِرَ من رسائل سياسيّة لهذا العصر يستطيع أن يلاحظ في وضوح أنّها كانت تجري أوّل الأمر في الصّورة التي كانت تجري فيها لعهد صدر الإسلام، فكاتبها أو مملّيها لا يتأنّق فيها ولا يقصد إلى تفنّن أو زخرف فنّيّ خاصّ، إنّما يقصد إلى أداء غرضه في عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الإيجاز)[3].

(لا نكاد متجاوز منتصف القرن الأوّل للهجرة، حتّى تتكامل الرّغبات للعناية بتلك الرّسائل عناية توفّر لها ضروبا من التّجويد والجمال الفنّيّ، كأنّما لم تعد الغاية أن تؤدّي أغراضها فحسب، بل أُضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروع القارئين والسّامعين بتحبيرها وتنميقها، وكأنّها قطعة موسيقيّة أو لوحات تصويريّة. ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها، فقد أخذوا ينوّعون في معانيها ويُفَرِّعُونَ، ويُطنبون صورا مختلفة من الإطناب)[4].

(الكاتب لا يفكّر في أداء معانيه فحسب بل يفكّر في تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية، كلّ حسب ذوقه، وكان يحيى بن يعمر لغويّا، وكان ذوقه ذوق لغويّين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كي يروع الحجّاج ويملك عليه لبّه، ونفذ فعلا إلى ما أراده، إذ كان الحجّاج يميل أحيانا إلى التّفاصح بالغريب)[5].

(ظاهرة الطّول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب في أدبهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد في شعرهم ونثرهم جميعا، أمّا منذ هذا العصر فقد استمرّت ظاهرة الإيجاز في الشّعر، بينما حلّت محلّها ظاهرة معاكسة في النّثر، وهي ظاهرة لا شكّ في أنّها وليدة التّطوّر العقليّ الذي أصابه العرب، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السّياسيّة وأن يفصّلوا في معانيها ضروبا مختلفة من التّفصيل)[6].

---

[1] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 104.

[2] عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة نموذجا، ص: 27، 28.

[3] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 106.

[4] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 106.

[5] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 108.

[6] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 106.

نموذج لرسالة سياسيّة (حدّثنا الرّواة أنّ يزيد بن المهلّب في أثناء بعض حروبه فكّر أن يكتب إلى الحجّاج كتابا، وكان يكتب له يحيى بن يَعْمُر، وهو عربيّ من أوائل من عُنُوا بوضع قواعد العربيّة، فلمّا أمره يزيد بالكتابة إلى الحجّاج وأن يعلمه بما صنعوا في الحرب كتب إليه هذه الرّسالة القصيرة: "إنّا لقينا العدوّ، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفةٌ برءوس الجبال، وعرائر الأودية وأهضام الغيطان، وبِتْنَا بِعُرْعُرَةِ الجبل، وبات العدوُّ بحضيضه")[1].

خصائص رسائل الحجّاج (لم يكن الحجّاج يعمد إلى السّجع في كتبه ورسائله دائما، بل لعلّ ذلك إنّما كان في القلّة وفي الحين بعد الحين، أمّا الكثرة فتخلو من السّجع. وليس معنى هذا أنّه كان يتخلّص من محاولة التّأنّق والتّنميق، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائما)[2].

المراجع:

1) ابن قتيبة: الشّعر والشّعراء، ج 1.
2) جابر قميحة: أدب الرّسائل في صدر الإسلام الجزء الأوّل عهد النّبوّة، دار الفكر العربيّ، ط 1، القاهرة، 1986.
3) شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ.
4) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسيّ الأوّل.
5) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ، العصر الإسلاميّ، دار المعارف، ط 11، مصر.
6) عبد الباسط الأنسيّ: أفضل الأساليب في إنشاء الرّسائل والمكاتيب، مطبعة جريدة الإقبال، ط 3، بيروت، 1331 (1913).
7) عبد الحليم كبّوط: أدبيّة الرّسائل الأندلسيّة طوق الحمامة أنموذجا، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الأندلسيّ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007 / 2008.
8) فايز القيسيّ: أدب الرّسائل في الأندلس، في القرن الخامس الهجريّ، دار البشير للنّشر والتّوزيع، ط 1، الأردن، 1989.
9) القلقشندي: صبح الأعشى الجزء 1، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1922.
10) محمود خياري: رسائل الجهاد، أدب الرّسائل الدّيوانيّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين، الجامعة الأردنيّة، قسم الدّراسات العليا، للعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، 1991.

[1] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 107.

[2] شوقي ضيف: الفنّ والمذاهب الأدبيّة في النّثر العربيّ، ص: 108.